الإجراءات التعليمية للترجمة المتخصصة الطبية القديمة
حنين بن إسحاق، أنموذجا

نادية حفيز
جامعة الجزائر2
hanadia19@yahoo.fr

ملخص:
إن الإجراءات التعليمية للترجمة عند الأستاذ المترجم الطبيب حنين بن إسحاق قد سبقت بقرون الإجراءات المعاصرة التي ما فتئ المترجمون الأوروبيون يعلنون عن اكتشافها تقريبا يوميا فيصفونها ويصنفوها بدقة أمثال جان دوليل Jean DELISLE ولادميرال Jean René LADMIRAL وغيرهما. فالإجراءات التي سار عليها حنين بن إسحاق تعليمية حيث كان يطبق القراءة الإجبارية على النص الأصلي وعلى النص المترجم ويصحح المخطوط المكتوب باللغة اليونانية المحفوف بالأخطاء ثم ينقله إلى لغته الأم أي السريانية ثم يترجمه وإذا اقتضى الأمر يعيد الترجمة.

الكلمات المفتاحية: إجراءات؛ تعليمية؛ ترجمة طبية؛ قراءة؛ اقتراض.

Abstract:
The procedures used by HUNAYN Ibn Ishaq, the official translator of the Abassid court, the doctor ... are purely didactic, done by a professional of the translation of Galien's writings on medicine: his didactic method was based on reading, translation, correction and proofreading of the translated text.

Keywords: Procedures; Didactic; Medical Translation; Reading; Borrowing.

قام حنين بن إسحاق، الأستاذ والطبيب والمترجم بإجراءات تعليمية للترجمة المتخصصة في الطب بحيث سبقت بقرون الإجراءات المعاصرة السائدة في أوروبا وأمريكا والتي ما فتئ المترجمون الأوروبيون يعلنون عن اكتشافها تقريبا يوميا فوصفوها وصنفوها بدقة

أمثال جان دوليل ولادميرال وغيرهما. وبمقارنة مع هؤلاء يجدر اعتبار حنين بن إسحاق رائدا في الإجراءات التعليمية لترجمة الكتب الطبية القديمة، وقد تم ذلك بفضل الجو الفكري السائد آنذاك بحيث كان هم المأمون نقل الكتب اليونانية المتخصصة في العلوم العربية ككتب الفلسفة والموسيقى والفيزياء والرياضيات والطب، التي ترجمت كلها وبالتالي أسس بيت الحكمة نتيجة إلحاحه على الترجمة، ونظم سلكا من المترجمين كانوا يتقنون عدة لغات قديمة بعدما أورد كل من يوحنا بن مساوية ومحمد أحمد والحسن بن شاكر المنجم وحنين بن إسحاق وقسطة بن لوقا البعلبكي وأبو سليمان المنطقي السجساتي مخطوطات يونانية من بلد الروم. أمر المأمون بترجمتها وواصل المتوكل تشجيع المترجمين حتى تمت ترجمة كل الكتب اليونانية المتخصصة في جميع العلوم.

انكب حنين على ترجمة الكتب اليونانية وخاصة مخطوطات جالينوس في الطب، وقد واجه صعوبات في ترجمة مصطلحات طبية كانت غير موجودة في اللغة العربية، فأخذ يقيم معجما بفضل عملية الاقتراض، ففتح بهذه العملية المعجمية بابا واسعا للطب العربي؛ ولذلك نحاول "أن نبين في نهاية البحث الدور الكبير الذي أداه حنين في تطوير العلوم الطبية بفضل جهوده الدؤوبة في الترجمة الطبية المتخصصة وهو يطبق إجراءات تعليمية قبل الموت.ما هي هذه الإجراءات؟ وما هي سيرورة حنين بن إسحاق في ترجمته الكتب الطبية؟

1- طرائق حنين بن إسحاق في ترجمته الكتب الطبية القديمة:

عوامل عديدة جعلته يعيش لترجمة الطب منها بيئته العائلية والثقافية وعامل شخصيته الفذة الخاصة به التي أدته إلى أن يكون من مشاهير الأطباء النصارى: ولد بالجيزة من قبيلة عياد العربية- النصرانية- والجدير بالذكر أن النصرانيين المعاصرين له تخصصوا في الترجمة مثله وهو الذي اشتهر بنقل الكتب اليونانية إلى السريانية وإلى العربية. ميزه تكوينه بالازدواجية اللغوية بحيث كان كامل الازدواجية بين اللغتين أي السريانية اللغة الأم وبين العربية اللغة

الرسمية آنذاك. وأتقن أي إتقان اللغة اليونانية التي تعلمها عندما قصد بغداد لمواصلة دراسته الطبية بها.

وبجانب اختصاصه الطبي مارس الترجمة ودرسها خلال تسع خلافات انطلاقا من خلافة المأمون (813-833) إلى الخلافة المعتمدة (870-892)، لقد ركز عمله على ترجمة كتب جالينوس Galien وترك للأجيال عملا كبيرا في ترجمة المائة والأربع مقالات لجالينوس، الأمر الذي يشهد له بمهاراته الترجمية والتعليمية والطبية.

أ- بيئته:

عصر المأمون عصر الترجمة المتخصصة المتعلقة بميدان محدود ألا وهو العلوم ذات المرجعية اليونانية وبأقل درجة منها الهندية والفارسية. ميدان لا يفقه جيدا إلا المتخصصون فيه أي الاحترافيون في الترجمة والعلماء والأطباء أمثال حنين بن إسحاق.

وقد انتشرت الترجمة المتخصصة في عصر المأمون الذي رغب في الحصول على الكتب العلمية والطبية المنسوخة باليونانية، ولقد ألح المأمون على الترجمة المتخصصة بفضل توفر المخطوطات اليونانية فكلف حنين بن إسحاق بترجمتها. فاختار حنين الطبية منها واتبع طريقة تنقيح المخطوطات وتصحيحها من الأخطاء الكثيرة المبعثرة فيها؛ بحيث كان يجمع بين النسخة المكتوبة باليونانية وبين النسخة السريانية ليقارن بينهما كي لا يفوته المعنى الخاطئ ولا التركيب. وقد لازم حنين بن إسحاق الطريقة عند كل ترجمة كان يقوم بها. وقد لازم حنين بن إسحاق الطريقة عند كل ترجمة كان يقوم بها. وبالإضافة إلى ذلك قد وجد حنين السبب المشجع من علماء عصره بحيث كانوا يساعدونه ويوجهونه ويحثونه على إعادة التصحيح إذا استلزم الأمر.

إن هذا الطاقم من الأعوان ذوي المستوى العلمي عامل من العوامل التي أثرت في سيرورته الترجمية، فكان سلماويه المترجم واحدا منهم علّمه الترجمة وشاركه في الكتابة.

ب- التخصص:

إذا كان التخصص في الترجمة يتطلب الاحترافية فقد كان حنين محترفا يترجم حسب الطلب، أي يترجم لخلفية لرغبته أو يترجم لطبيب آخر فيتقاضى مقابلا ماديا من أبناء موسى المنجم الذين كانوا يستخدمونه كمترجم خاص بمدرستهم. فتدفع له خمسة مائة دينار شهريا. والحال نفسه لحبيش بن الحسن وثابت بن قوة عند ترجمات جالينوس وتعريبها. والباحث على اختيار الترجمة الطبية كون أبيه كان صيدليا فمال حنين إلى الطب وهو ميدان شغف به العرب وتلقوه من اليونان عن طريق السريان والفرس حتى صار في العصور الأولى للخلافة العربية فرعا من برنامج الدروس في الجامعات العربية والأوروبية، وبانتشار هذا العلم تحتم الأمر على ترجمة الكتب اليونانية المتخصصة في هذا الميدان والمعتبرة مصدرا للطب، فانكب مشاهير الأطباء النصارى من بينهم حنين يترجمونه. إذن مارس حنين الترجمة لأنه متخصص أصلا في الطب متطلع على الميدان الذي سيترجمه.

2- سيرورته في ترجمة مخطوطات جالينوس:

بنى حنين سيرورته على أساس طريقة التزامها على الدوام خلال عمله الترجمي منها القراءة واختار المدونة وإعادة القراءة والاقتراض.

أ- المدونة المختارة:

اعتمد حنين على مدونة خاصة بكتب جالينوس الموضوعة باللغة اليوانية، وجالينوس (131-201) طبيب يوناني، له اكتشافات في علم التشريع، ائتم به أئمة أطباء العري من بينهم حنين الذي قام بكل الإجراءات اللازمة في ترجمة مقالات.

ب- القراءة:

بادئ ذي بدء، كان حنين يشرع في قراءة أولى للمخطوط اليوناني وسلماويه بجانبه يقرأ عليه النص الذي ترجمه إلى السريانية بينما حنين يتبعه خلال النسخة اليونانية، يتوقف من حين لأخر عند فقرات يبتعد معناها عن معنى النص اليوناني. فعلا كان حنين يكلف

نفسه مشقة كبيرة لأن العمل يتطلب الدقة والمراجعة والتصحيح، كان بإمكانه إعادة الترجمة كاملة غير أن سلماويه يحثه على المضي قدما لترجمة الفقرة المنزاحة دلاليا وما هما إلا منكبان على هذا العمل المشترك حتى تتم الترجمة مضبوطة، بعدئذ كلف المأمون طبيبه الخاص، زكريا بن عبد الله الطيفوري، بنقل النسخة المترجمة إلى بغداد، ولكن النسخة ضاعت في السفينة التي اشتعلت نارا. ولم ييأس حنين إذ واصل العمل بالتزام قراءة ثانية بالتقارب الجانبي أي أنه كان يقارن بين نصوص يونانية قد جمعها وبين نصوص سريانية بتطبيق التصاحب اللفظي حتى ينتهي إلى وضع نص موحد فيصححه مرة أخرى. كان يسير على هذه الطريقة عند كل ترجة يقوم بها.

بعد القراءات الثانية كان حنين ينتهج نقد الترجمة فانتقد مثلا، ترجمة سرجيوس Segios لكتابه « methodum medendi »، إذ ظهرت ترجمة سيرجيوس أمام أعين حنين ضعيفة فأخذ يصححها، فأعاد ترجمة الكتاب من بدايته وصرح بأنه أتقن الترجمة وصقل لغته وجعلها أنيقة. كان يوّد أن يجد مخطوطا ثالثا ليترجمه بطريقة التقرب الجانب غير أن هذا المؤلف المكتوب باليونانية نادرا ما كان يقرأ بمدارس الإسكندرية. كان حبيش بن الحسن قد ترجمه إلى العربية تلبية لطلب محمد بن موسى فاستغاث بحنين ليراجعه ويصحح الأخطاء هذا ما قام به حنين كمترجم وقارئ ومصحح.

بعد القراءة يواصل حنين سيرورته بالمراجعة. قلما كان يترجم مباشرة من اليونانية إلى العربية بل كان يؤثر الترجمة من النص السرياني بحيث كان يرى نقصا في المعجم الطبي العربي وإذا ألح عليه الطالب بترجمة يونانية/عربية فيكلف أحد مساعديه. كان همه أن يكون بين يديه نص باللغة اليونانية الصحيحة. يجمع عدة مخطوطات غير أن العمل بالتقارب الجانبي طويل ومتعب يفرض القيام بالنقد النصي مع أن حنين لم يعلق بالمتغيرات في الهامش، بل كان يتبع الطريقة الجدية التي ألفها وهي انطلاق الترجمة من نص كامل وواضح. وبالإضافة إلى هذه الطريقة كان مخلصا أمينا لا يترجم ترجمة حرفية وإنما كان يبحث عن المصطلح الدقيق مصرحا بحذف بعض الأعلام من النص اليوناني.

كانت مخطوطات جاليتوس تسهل ترجمتها لنوعية أسلوبه أما أسلوب أرستوفانس Aristophane فكان حنين يرغب عنه لغموضه ولرداءته. فبعد اختيار النص الجالينوسي يواصل حنين الترجمة.

ج- الاقتراض:

على هذا الأساس كانت ترجمات حنين ذات قيمة متميزة من حيث الجودة والدقة الفقهية اللغوية. إن العمل الجاد الذي بذله حنين قد أثرى القاموس الطبي العربي. فالسيرورة كانت بالنقل الحرفي للكلمة اليونانية وقولبتها حسب النظام الصوتي العربي، وبالافتراض لسد فراغ في لغة الوصول؛ إن وجد عبارة غير متكافئة، نقل ألفاظها بألفاظ جديدة. وإذا كان اللفظ غير متداول في لغة الوصول، كان حنين يشرحه في الهامش حتى يأخذ اللفظ قالبا عربيا ويدخله في القاموس الطبي العربي. هذه العملية قديمة لم يبتكرها حنين، وإنما كان المترجمون القدامى يطبقونها كحل لاستحالة الترجمة بإبداع كلمات ومصطلحات جديدة.

إن الاقتراض مصطلح كان يوظف عند العرب في ميدان التجارة بحيث يقول ابن منظور: "... أصل القرض ما يعطيه الرجل أو يفعله ليجازى عليه... هو اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء... فقطعة له قطعة يجازى عليها... والقرض في الأرض هو قطعها بالسير فيها...".

وإذا قيس المصطلح الحديث "اقتراض" بالقطع والجزاء فيطبق معناه على تحديد ابن منظور فنقول: كل أمر يتجازى به نصّان فيما بينهما من لفظة جديدة مقطوعة. وبالتالي يسمح الاقتراض بإبداع كلمات مقطوعة من لغة الانطلاق للوصول إلى لغة الهدف. استحالة الترجمة تقاوم بالاقتراض لأنها وقفت عقبة أمام المترجم عندما يترجم نصا متخصصا طبيا. وشاعت طريقة الاقتراض في يومنا هذا متأثرة بالطريقة الأسلوبية المقارنة لدى فيني VINAY وداربلني DARBELNET ولكن حنين كان يجهلها ولا يسميها بهذا الاسم.

كانت سيرورة حنين بالنقل الحرفي للكلمة اليونانية من أجل الفراغ المعجمي. والجدير بالذكر هو أن الطب ميدان جديد غير

موضوع علما بل أبدع فيه اليونان. فالمثال يضرب على المصطلح يرقان المأخوذ من اللفظ السرياني Yargono والبرستان أي المستشفى المأخوذ من اللفظ الفارسي: بيمار: أي المريض واستان:المكان.

الطريقة الأخرى هي البحث عن مكافئ لكلمة موجودة فتلبس بلباس التشريح أو علم وظائف الأعضاء كاللفظة اليونانية puloras التي تعني حارس الباب pylore فيترجم بالبواب كمكافئ لحارس الباب، فيضاف معنى طبي جديد للمعنى العادي، وهذا ما يطابق تعريف الجرجاني للمصطلح بحيث يقول: "الاصطلاح عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول وإخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما".

نقل المصطلح اليوناني epilepsia بكل بساطة إلى السريانية بـ: إفلمسية ثم إلى العربية: إبلمسية: فقلب المصطلح وعوض بمصطلح عربي: الفرع الدال على إسقاط إنسان أرضا. نسي المصطلح اليوناني مع مرور الزمن وصار المصطلح العربي شائعا وأكثر استعمالا؛ لأن المصطلحات العربية صارت موحدة ومعروفة لدى الجميع.

يضرب مثل آخر للمصطلح اليوناني الدال على مسحوق جاف قد نقله حنين من السريانية Kiçirim على طريقة تشبيه صرفي فصار مصطلحا عربيا الإكسير، وانتقل عن طريق اللاتينية إلى الفرنسية elixcir. وقد وقع التغيير الصوتي وكذا انزلاق المعنى بحيث كان الأطباء القدامى يشفون الأعين وبعض الجروح. ثم اتسع استعمال المصطلح الإكسير، ويزعم اللغويون أنه اشتق من الفعل كَسَرَ، ولما زال حلم العلماء في تغيير المعادن إلى ذهب، أفل المصطلح وما بقي يحمل إلا شحنة دلالية سحرية.

د- الترجمة الطبية التعليمية:

على أساس الصرامة والجدية في الترجمة، كون حنين بن إسحاق مدرسة، تبعه ابنه إسحاق وابن أخيه حبيش اللذان ترجما عدة كتب طبية، غير أن سوء حظهما جعل ترجمتهما تنسب كلها إلى حنين.

قد كشف محمد بن موسى بن شاكر المنجم مترجما من النوع الخاص ألا وهو ثابت بن قرة فطلب منه إعادة قراءة ترجمات حنين بن إسحاق وابنه احتراما للأمانة الطبية.

صار الأستاذ يوحنا بن مساوية (777-857) مؤلف الكتاب: "النوادر الطبية" خاضعا لرغبات تلميذه حنين الذي طلب منه تأليف هذا الكتاب. قام حنين بن إسحاق بترجمة طبية تعليمية حيث قدم موضوعات متخصصة كطب العيون والحمية وعلاج الأسنان والصيدلة. إنه مثّل أحسن تمثيل الفكر اليوناني الذي صاغه في قالب عربي خالص. ويعتبر كتابه "كتاب المسائل في الطب" أهم عنصر للطب في القرون الوسطى حيث كرسته أجيال وأجيال من الطلبة العرب قديما. أتمّ تحريره حبيش وقدم على شكل أسئلة/أجوبة. والملاحظ أن الترجمات الطبية أدخلت في العالم العربي نوعا أدبيا جديدا من الكتابة التي تتمحور حول مقالات دقيقة وقصيرة تدور حول موضوع واحد، فبفضل الترجمات ورث العرب إرثا عظيما في الطب آتيا من اليونان أولا، ثم من الهند والفرس ثانيا.

خاتمة:

حنين بن إسحاق مترجم اتصف حقا بصفات المنظر حسب التحديد المعاصر لنظرية الترجمة. طبق سيرورة صارمة من قراءة عدة مخطوطات والقيام بالمقارنة بينها أسلوبيا ولغويا؛ صحح المدونة الأصلية المكتوبة باللغة اليونانية وشرع في نقلها إلى السريانية لغته الأم، ثم قرأ الترجمة الأولى وأعاد الترجمة من السريانية إلى العربية، فأعاد قراءة النص العربي في آخر المطاف ثم علق على مساره الشخصي عند الترجمة.

يعتبر نوع عمله من المستوى الرفيع لا يضاهيه أحد حتى في عصرنا؛ بحيث التزم قواعد ترجمته وفرضها على نفسه. ولازم الشرح والتأويل قبل الترجمة وهدفه المنشود كان تعليميا- تكوينيا، ولازم التصحيح: تصحيح المخطوط الأصلي، فالترجمة الأولى ثم الترجمة الثانية ولازم عملية المقارنة عند الترجمة بالتقارب الجانبي.

ولكل هذا، يعتبر حنين بن إسحاق بحق جامع المصطلحات الطبية، حدد معناها وعمم استعمالها حتى صارت توظف إلى غاية العصر الثاني عشر ميلادي. جمع كل المعارف الطبية الشائعة، ونقلت ترجماته إلى اللاتينية لتُدرس في الكليات الطبية الغربية.

مكتبة البحث:

1- ابن منظور، لسان العرب، الطبعة مصورة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، دون تاريخ.
2- طابليت، علي، دفاتر الترجمة، الجزائر، صص24-29.
3- ARKOUNE Mohammed (1973), Essais sur la pensée islamique, Paris, Maisonneuve et Larose.
4- JACQUART Danielle et MICHEAU Françoise (1990), La médecine arabe et l'Occident médiéval, Paris, Maisonneuve et Larose, collection « Islam-Occident ».
5- TROUPEAU Gérard (1986), Les problèmes posés par la traduction de l'arabe médical ancien en français moderne, Meta, Journal des Traducteurs, Volume 31, Numéro 1, mars 1986, p. 11-15.